سلطه علمية

ألف هذا الكتاب الدكتور أحمد زكى دكتور فلسفه وعلوم وعضو مجمع اللغة العربية ومدير جامعة القاهرة سابقا.

وإذا كانت السلطة الخضراء أصح غذاء للجسم فالسلطة العلمية التى يقدمها هذا الكتاب غذاء غنى مفيد للعقل.

سئل رجل يوما عن مركز الدنيا، وعن محورها الذى تدور عليه، فقال: أنا، وقد صدق الرجل فمركز الدنيا، لكل حى، ومحورها هو «نفس» هذا الحى.. فهو من هذا المركز يرى الدنيا، ويرى الحياة شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا... وهو على هذا المحور يدور يدور للعيش ويدور للحياة، فالحياة هى ما كانت حياته، والدنيا هى ما كانت دنياه.

وقد يزيد وعى الرجل فيدرك أنه بعض أُمّة هى أمته... وقد يزيد وعيه فوق ذلك، تلك التى تمشى على رجلين، وتنطق فى أفواهها الألسن، ليست إلا قبيلا واحداً يسكن هذه الأرض... وأنه إلى جانب هذا القبيل الإنسانى، يوجد قبيل وقبيل وقبيل، إلى مالا حصر له من قبائل الأحياء فى شتى مدارجها من أرض جامدة، أو بحر مائع، أو هواء رقيق شفاف... وقد غزا الإنسان، الأرض، فقطع أشجارها ليزرع وطارد تلك القبائل الأخرى من الحيوان ليأمن، وملك البسيطة حتى صار سيد الأرض والماء والهواء... ومع هذا فهى سيادة لاتزال غير كاملة.. ومن نعم الله كما يقول الدكتور أحمد زكى أنها سيادة غير كاملة فلوأنها كملت لامَّحَى من فوق ظهر الأرض الكثير المعجب من مخلوقات الله، فحزن لامحائه الجمال، وحزن الفن، وحزن العلم، وحزن التاريخ تاريخ الإنسان، وتاريخ الطبيعه، وخرب جانب عامر خطير من جوانب الحياة.

من موضوعات الكتاب، موضوع: (العقول، كالبحار، لها أعماق) نحتاج إلى هدوء عميق لنسمع كيف يفسر فى تطبيق، هذه المقولة ومؤداها، أن البحار حفر فى الأرض تغمرها المياه... ومن هذه الحفر، الضحل ومنها، العميق وهذه الحفر المملوء بالمياه قد تبلغ أعماقها كيلومترات.. كليومترين وثلاثة وأربعة وفوق ذلك.

وأنت إذ تركب السفينة فوق سطح البحر، وتدور بعينك فوق الماء تنظر ما حولك، من أشياء، تجدها واضحة الحدود، واضحة التفاصيل.

ثم إذا أنت خلعت ملابسك ونزلت فغطست فى ماء البحر، والماء راكد هادئ فسوف ترى فيه ما حولك من أشياء، على ماتود من الوضوح ولكن درجات ثم لاتبلغ المائه فالمائتين من الأمتار فما بعدها عمقا، حتى تجد الضوء قد قل، ثم هو قد ذهب، وتجدك فى ظلام حالك، يمتد إلى أسفل مئات الأمتار وألوفها... ولما لم يكن فى مقدور صاحب العين أن يهتدى فى الظلام، فأنت واقف عند هذا الليل، وأنت مرتد عنه، محجم، لأنك لاتستطيع أن تكشف حجبه.

أنت فى طبقات البحر القريبة، حيث استطاعت عينك أن تصيب ضوءا، رأيت الشئ الكثير من الحياة، أسماكا تغدو وتروح مختلفه الأجسام مختلفة الأحجام مختلفة الألوان.. ثم تأتى أعماق البحر البعيدة وحُجُبه، فلا ترى من دونها إلا سوادا، فتقول مابها شئ، ومابها حياة.. وعند ذلك تخطئ إستنتاجا، فما يمنع ظلام من عيش.. إن فى هذه الأعماق البعيدة المظلمة السوداء لحياة، كحياة رأتها العين فى الأعماق القريبة المضيئة البيضاء.. ومن بعد الأعماق القريبه البيضاء والأعماق البعيدة السوداء، يأتى قاع البحر، وهو أيضا لايعدم الحياة أشكالا.

طبقات تقسمت إليها البحار، وتقسمت إليها، أعماقها.. أقربها شبها بطبقات تقسمت إليها العقول.

كيف

هذا هو السؤال الذى سيعطينا جوابه العالم الأستاذ الدكتور أحمد زكى.

إن الرجل منا، يركب عقله كما يركب الملاح، بحره... وهنا يكون، فِكْره، هو عين الملاح الباصرة.

وأول طبقة من طبقات العقل، طبقته الظاهرة، سطحه. فأنت تستطيع أن توجّه فكرك إلى مايحضرك من أمور، وأنت إذ تفكر إنما تدور بمصباح الفِكْر على سطح العقل كما يدور الملاح بعينه على سطح البحر.

إن صورة يستوعبها الفكر، بصيرة، على ظاهر العقل، كصورة تستوعبها العين، بصرا، على ظاهر ورقه أو على وجه الأرض والطبيعة، بعضها يظهر فى العين، تركزا، ويظهر الآخر ولكن مبهما شائعاً.

والمسرح الذى تظهر عليه هذه الصور جميعا هو مايسميه العلماء بالعقل الظاهر أو العقل اليقظ أو العقل الواعى Concious mind والفكر مثير هذه الصور، وهو جامعها على المسرح ومحركها ومجريها.

ومن سطح العقل، من العقل الظاهر، أى من العقل اليقظ أو اليقظان أو الواعى، نهبط فى أعماق العقل قليلا كما نهبط فى البحر... فنجد طبقه يمدها الضياء يستطيع الفكر أن يجرى فيها ويرى أشياء وأشياء ولكنه لابد أن يدخلها غطسا ولكنه غطس هيْن، يتضمن مجهودا ولكنه غير كبير.. والمهم أنه إذا دخله رأى فيه فاستطاع صيدا.. وهو كلما أوغل فيه، قل ضياؤه، وتعذر صيده.

فهذه الطبقه هى العقل النصف يقظان أو تحت الوعى Sub-concious وهى خزانه للعقل، كبرى، يخزن فيها الأشياء ويدخرها... وإليها يغوص الفكر سهلاً فيعود بالذى يريد إلى جهرة النهار عودا سهلا يعود به إلى العقل الظاهر حيث الصور تتراءى واضحة جلية.

والعقل نصف اليقظان هذا يدخر الأشياء فى نظام وليس ركاما... وإنما صفوفا مرتبا بعضها مرتب فوق بعض متسلسلا بعضها فوق بعض، مرتبطا بعضها ببعض ومن أجل هذا يذكر الشئ بالشئ... بأشباهه ونظائره... وقد يكون الوجه الواحد فى الشبه رباطا.. وقد يكون الجوار فى الموضع رباطا وقد تكون الجيرة فى الزمان، رباطا.

ولهذا العقل نصف اليقظان غرائب لم يكشف عنها العلم بعد إلا قليلا من هذا أن الفكر قد يغوص فيه يطلب من خزانّ شيئا ولكن يبقى هذا الشئ المطلوب مستعصيا على الفكر.. مستعصيا على الذكر فيسأم ثم ينسى ولكن بعد حين يطفو هذا الشئ المطلوب إلى العقل الظاهر على غير انتظار فما الذى طفا، به؟ وما الذى أغراه بالطاعة بعد عصيان؟ هذا أمر دون تفسيره تعجز إلى اليوم، قدرة العلماء.

ونحن إذا أمعنا النزول فى أعماق العقل كالبحر، تأتى طبقة الظلام... طبقة لايدخلها النور... وهى طبقة كالتى سبقتها، خزانه عظيمة، بها مذخورات ومدخورات، وأشياء كثيرة، ولكن ليس للفكر عليها، سلطان. وهو إذا دخلها، ضل وكيف يهتدى الفكر فى سواد ليل.

ويسمى العلماء هذه الطبقه، بالعقل غير اليقظان أو غير الواعى Unconcious وإن شئت فالنائم، ولكنه نوم كله حركة، على الرغم من أننا لاندركها ولاندريها.

فبهذا العقل غير اليقظان تتعلق أعماق الحياة الجثمانية، من تنفس هواء، ودورة دم، وهضم طعام.. ومن هذا العقل غير اليقظان تخرج الأهواء والنزعات، ومايحب المرء ومايكره... وعن هذا العقل غير اليقظان تصدر العادات... والعادات تجرى فينا برغمنا وعلى غير يقظة منا... وفى هذا العقل غير اليقظان تظهر أعراض الأمراض النفسية جميعا.

وعلى هذا الجانب من العقل يركز العلماء النفسانيون، اليوم، البحث، تلمسا للأعراض وتوسلا إلى الدواء.

وفى هذا الجانب من العقل تنعقد العقد النفسية وهى حديث الساعة بقى ما يبقى من البحر: قاعه.

وفى هذا القاع يحتفظ العقل بذكريات لاتتصل بشخصه هو، ولابحياته هو، لكن تتصل بالجنس، جنس الإنسان..

مِن ذلك خوف الطفل من النار، وهو لم يكن عرف نارا... وخوف من الأصوات المزعجة، وهو لم يكن سبق له منها ازعاج، وخوف من حيوانات لم يكن رآها قط، ومن أشباه هذا خوف القطة من الحبل إذا تلوى، فإنها ترى فيه صورة الثعبان، فتهابه بالطبع ولو أنها لم تر، قط، ثعبانا... ويشب الطفل من بنى الإنسان وتبقى ذكريات الجنس فيه حتى الموت.

وبعد فالطبيعة فيها أشياء كثيره غريبة وعجيبة، ولكن أعجب ما فى الطبيعة: الإنسان.

وأعجب ما فى الإنسان: تلك الناحية الغامضة التى نسميها، النفس ونسميها العقل..

ويجرى الباحثون وراء الأسباب والمسببات ولا تنتهى حيرتهم فلايملكون إلا أن يرددوا قوله عز وجل (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وينتقل الكتاب الدسم وإن قال عنه صاحبه (سلطه علمية)، إلى موضوع (نظرية النشوء والارتقاء) أو صراع الحى فى سبيل الحياة.

انصرم الليل إلا أقله ورجل كهل مـازال جالسا إلى مائدته الكبيره يكتب فـى استغراق طويل وصل صباحه بمسائه.. وعصره بفجره ومن غرق فى الفكر، ذهب حسه بالزمن.

كان يكتب على نور مصباح زيت له مدخنة فلم يكن العصر قد عرف، بعد الكهرباء.

هذا الرجل الكث اللحيه هو شـارلس دارون Darwin وكان اسم الكتـاب الذى استغـرقه وملك عليه حـواسه هو كتـاب (أصول الأجناس) وهو الكتاب الذى أحـدث فى عالم العلم ثورة وشغل، فى وقته، الحياة والناس.

ويدور الكتاب حول «فكرة النشوء»... وأحيـانا يقولون النشوء والارتقاء وهذه النظرية تقوم على دعامات ثلاث:

* وجود فروق فى ذرية البطن الواحد أو الخلف الواحد.
* صراع فى سبيل الحياة.
* ذهاب الضعيف وبقاء القوى، أى الأصلح للحياة.

هذا الصراع بدوره قسمه العلماء، إلى اربعة أنواع:

- صراع الفرد فى سبيل طعامه ومكانه.
- صراع الفرد فى سبيل حبه وإنسانه.
- صراع الفرد فى سبيل أسرته.
- صراع الفرد فى سبيل قطيعه أو قبيلته أو أمته.

وهذه الألوان من الصراعـات تحفل بغرائـب وطرائف يزخر بها عـالم النبات وعالم الحيوان وعالم الإنسان أيضا.

ننتقل فى هذا الكتاب إلى قصة الزجاج:

الهواء أغلى الأشـياء للحياة... وأرخص الأشـياء فى الحياة ليست فزوره فقد انقـضى شهر رمضان.. ولكن العلم يقول:

(إن الهـواء أكثـر الأشـياء.. ومن أجل هذا كـان أرخص الأشـياء إنه لا يذكـر فى حسـاب، ولايدخل فى مطالب رزق ولافى حاجات عيش، وهو مع هذا أساس العيش وأول الحاجات.

وإذا أردت إثباتا لذلك فضع كفيك على مداخل أنفاس أغنى أغنياء العالم، ثم ساومه فى الهواء الذى حبسته عنه، يَجُدْ لك فى سبيله بكل غالٍ نفيسٍ.

ومثل الهواء، الماء، من حيث أنه شئ شاع وكثر، فرخص وحقر، لاسيما فى المدن... وعلى كل مورد غمر من موارده العذاب (بكسر العين وإن برئت من الذنوب لأنها عين النحو).

الزجاج من الأشياء الكبيرة الخطيرة التى قامت عليها المرئيات وعلى الأخص المدنية الحديثة الحاضرة ماذا تكون منازلنا بغير زجاج فى البرد والحر والريح. ماذا تكون منازلنا بغير مصابيح؟

ماذا تكون بيوتنا من غير مرايا؟ كما يقول المؤلف؟ يخرج الدمل فى وجهك إن كنت رجلا فلاتراه، ويتقرح حلقك فلاتبصرة.. وإن كنت امرأة افتقدت، بل افتقدت خير متع الدنيا، وأكبر متعها الغرور.. فبغير مرآة لاترى المرأة جمالها، أو ما تخال أنه الجمال. وهى تفقد الأداة لهندسته، وتنظيمه، وتزويقه، وتسويقه، وترويجه.. تفقد الأداة لصناعتها الكبرى وتعود تطلب رؤية هذا الجمال بعين جارة لها، هى فى هذا الأمر شر الجيران أو هى تطلبه كما طلبه الأقدمون فى صفائح المعادن أو على صفحات الماء فى الغدران.

تصور العلم الحديث الذى هو أساس المدنية الحديثة. إن الكيمياء تجار بها كلها فى زجاج.. أنابيب اختبار، وكئوس زجاج للمزج، وقوارير تقطير.. والطبيعة أو الفيزيقى، مقاييس الحرارة فيها من زجاج، ومقاييس الضغوط والنباتى عكازه المجهر أى الميكر سكوب وهو من زجاج.. والفلكى عماده المرّقب أى التلسكوب وهو من زجاج وهكذا سائر العلوم.

يقول الدكتور أحمد زكى:

(إن المصرى ليغتبط، وإن سكان الشرق الأوسط ليغتبطون إذ يذكرون أن صناعة الزجاج نشأت فيهم، وبدأت ثم تكاثرت على أيديهم.. ويذكر أهل التاريخ لمصر أنه فى أزهى عصورها، فى عصر الأسرة الثامنة عشرة، قبل الميلاد بنحو ١٥٠٠ عام، كانت صناعة الزجاج صناعة مستقرة وطيدة فيها. عرف الباحثون ذلك مما وجدوا من محفوظات ذلك العصر ومنها ما كان زجاجا بديع الصنع حقا... وعرفوه مما خلف ذلك العصر من مصانع للزجاج لاتزال بقاياها تُرَى إلى اليوم... ومن ذلك العصر إلى حين ظهور المسيحية ظلت مصر المركز الأول والأشهر والأخطر لصناعة

الزجاج فى العالم... وتركز صناعته فى الاسكندرية، ومن الاسكندرية خرج الزجاج يرود بقاع الدنيا أجمع، ماعُرِف منها عند ذلك.

وليس عجيبا أن تنشأ صناعة الزجاج فى مصر وأن تتسع فى أكنا فها وعندها: جبل المقطم، والصحراء، ثم وادى النطرون. فمن المقطم يخرج الجير، ومن الصحراء يخرج الرمل، ومن وادى النطرون تخرج الصودا. والنطرون اسم الصودا القديم والزجاج إنما هو جير + رمل + صودا ثم يحمى المزيج على نار شديدة حتى يصير سائلا أشبه بالعسل الثخين ولكن بغير حلاوته طبعا ثم يبرد الزجاج السائل فيزداد قوامة تماسكا ثم يتجمد.

ومن عجب أن المصريين القدماء صنعوا الزجاج من واحد وعشرين قرنا وصنعه غيرهم فى العصر الحديث.

ومن مزايا الزجاج: الشفافية

ثم صموده لكل وفى كل الأجواء

فليس هناك مادة تضارعة فى ثباته فالحديد يصدأ والنحاس يصدأ والمعادن تتغير فى الهواء أما الزجاج فإنه لايصدأ ولايتغير ولهذا تستخدم معامل الكيمياء الزجاج فى حفظ الحوامض التى تكوى الجلد وتذيب العظام وتأكل النحاس والحديد. وفى الصناعة قد تعجز أوعية الحديد والفولاذ عن احتمال ما يجرى فيها من تفاعلات فتؤثر الأوعية الزجاجية.

ومن مزايا الزجاج، الملاسه فيسهل غسله وتطهيره ومن مزايا الزجاج، القوة يحتملها ضغطا ويحتملها شدا.

إن العود من الزجاج تحتمل البوصة المربعه من مقطعه عند الشد نحوا من ثلاثة أطنان قبل أن ينوء بالحمل فيتصدع.

ومن صفات الزجاج أنه يعزل الكهرباء فلاتسرى فيه، ولاتنفذ منه.

ومن صفات الزجاج: الصلابة... والصلابة غير القوة ومن مزاياه أنه يتشكل وهو ساخن على الصورة التى يريدها الإنسان.

إن الخشب لايتشكل إلا نحتا وخرطا والحجر لايتشكل إلا نحتا.

والطرق والنحت أعمال بطيئة مجهده ولهذا سعد العصر الحديث بماده البلاستيك (اللدائن) لأنها لينه كالعجين وهى ساخنه يسهل تشكيلها.

والزجاج أبو اللدائن لأنه أقدمها.

إن الماس على نفاسته عند الناس لايملك اللدونه ففقد المركز الأول فى حياة الناس ففضل الإنسان، عليه، الزجاج.

يقول المؤلف: إن الماس يقرط الأذن ويزين صدور الغيد، ويسطع بالنور فوق مفارق الحسان ولكن أين هذا مما يصنع الزجاج فى حياة الإنسان إن الزجاج خير ألف مرة من الماس.

أقول سيدة، هذا رأى الرجال ولكنى أرجح أن النساء لايوافقن على هذا الاختيار.

ومن الطريف قول المؤلف فى معرض تفضيل الزجاج على النحاس: (إن قطع الماس من جميله غير مستطاع كسره لاباالحديد ولا بغير الحديد لأنه أشد المواد قسوة وأكثرها صلابه فلاسبيل إلى قطعه إلا بشق الأنفس وفناء الأعمار ثم هو لاينصهر أبدا وإذا أردته على الإنصهار غصبا، برفع درجة الحرارة عالية، خدعك عن نفسه واختفى !.

وما أختفاؤه إلا لأنه فحم! نعم فحم فهو يحترق ويتأكسد فيختفى فى الجو كما تختفى الفحوم، فحم الشجر وفحم الحجر. نعم إن الماس فحم تبلور. فحم انتظمت ذراته واندمجت، وتنضدت واستقت فبدلها النظام والوئام والاتساق. من شئ أسود إلى شئ يتراءى أبيض من شئ يمتص كل النور إلى شئ يجود بكله أو بأكثره.. من شئ يقتل الضياء إلى شئ يحيى الضياء ويحييه أزهى ما يكون وأسطع ما يكون فيغرى به ويُسبى.

أقول أليس هذا درسا من الطبيعة فى الانتظام والاندماج والاتساق ؟

تقول لمين... العالم كله غاوى حرب وضرب.

ومن الطريف مرة أخرى قول المؤلف العالم عندما يجنح يهوى التعبير الأدبى فى رقته وحلاه.

يقول الدكتور أحمد زكى: (ولكن الماس مع إغرائه وإغوائه ومع إصبائه، يقع بين المواد النافعه فى المرتبه الثانية، ولا أريد أن أجرح بعض القلوب فأقول الثالثة أو الرابعة أو بعد ذلك قدرا.. أما الزجاج فيأتى فى المرتبه الأولى..

إن للماس المرتبه الأولى عند الشعراء وشياطين الشعراء، عندما يطلبون منه العون على إشباب عاطفه ويطلبون منه الإيحاء ولكن ما هكذا هو فى حياة الناس من بعد خدمة العواطف واشباعها وإشباع حس الجمال فينا) .

وهنا يقول فى انتصاف للزجاج.. إن الزجاج أيضا يرضى حس الجمال حين تشكل منه الجدران فترضى الجسم بدفئها، وترضى العين بضوئها الذى نفذ فيها وترضى بزخرفتها البديعه حس الجمال فى الساكنين.

ويضيف إلى الزجاج ميزه أخرى فحين تزاد نسبة الرمل ويستبدل بالجير وبكثير من النطرون أكسيد البورون فإنه ينتج عنه الزجاج المشهور بال بيركس Pyrex الذى يحتمل الحراره المفاجئه فى الفرن والبرودة المفاجئه بعد خروجه وتعرضه للجو.

ومن مزايا الزجاج أن العلم استطاع أن يصنع منه شعرات رفيعة غاية فى الدقة فيها ملاسة وفيها لين، وهى تغزل وتنسج ملابس ومنها تصنع الستائر فلا يصبيها الحريق وتصنع الحشايا وتحش سقوف المنازل وحيطانها وحيطان عربات بولمان، وجدران السفن الحربية والغواصات وجدران الثلاجات.. كل ذلك لأنها تحفظ على هذه الأشياء حرارتها وهى عند الحريق لاتحترق كسائر المواد فهى لاتعين عليه..

أقول طبعا السيدات ودن من طين وودن من عجين.. الماس عند هن أحسن..

***

ويتناول كتاب (سلطة علمية) عالم الضفادع ومن طرائفه أقصد طرائف المؤلف قوله:

لاأظن أحدا من بنى الإنسان يستهويه صوت الضفدع ولا أحسب أحدا يربط هذا النقيق بمعنى من معانى الجمال أو بمعنى من معانى الحب ولكن أنثى الضفادع ترى رأيا آخر فإذا وقف الضفدع الذكر فى الوحل والماء يرفع عقيرته بالغناء على طريقته لعل للشوق جوابا ويصادف الصوت إعجابا فإن الأنثى تجود وتصل بعد أن رضى غرورها.

ماذا أقول حتى الضفدع خدعوها بقولهم حسناء ومن عجائب الضفادع أنها لاخوف عليها من الاختناق لأن الضفدع يتنفس من جلده لا من رئته.

ويحنو المؤلف على الضفادع إلى درجة أنه يقول: (وتنظر إلى الضفدع فيعجبك منظره !! فذلك الوجه العريض والعينان الكبيرتان البارزتان يعطى الضفدع وقارا دونه بعض وقار الرجال أو هووقار المرأه العجوز إذا تبرقعت، ولاشك أنك لاتعدم أن تجد فى مظهر الضفدع سيماء الحكماء حتى إذا هو أراد التحرك وقذف بنفسه نطاقى الهواء، أضاع الحكمه وأضاع الوقار.

ومن روائع كتاب (سلطة علمية) قصة عود الكبريت يقول (لقد عبد الناس، النار لنفعها، وعبدوها لجهلهم إياها وانبهامها، ولكن كأنى بهم أيضا عبدوها لاستعصائها وظلت النار مستعصية طوال القرون، ينتجها الناس حكا أو قدحا، وأحيانا بالزجاج مرايا أو عدسات.

ثم ولد عود الكبريت.. ولد آخر الدهر ولد فى القرن الماضى (التاسع عشر) لا فى سواه.. ولكننا تعودنا الكبريت وألفناه... ألفناه استخداما وألفناه كثرة فلم تعد النار مثار إعجاب ولامطلبا لعباده.

لقد اكتشف الإنسان مادة قريبة الاشتعال فى السكر الأبيض والكبريت الأصفر ومن أجل هذا سمى العود عود كبريت.

وكان أول عود كبريت، عودا صنعه رجل فرنسى اسمه شانسل Chancel ١٨٠٥. ولكن كانت البداية متواضعه.

ثم دخل الفسفور فى صناعة عود الكبريت.. والفوسفور من خواصه أنه يُرى فى الظلام لأنه يتقد ومن هذا جاء اسمه فالفوسفور معناه حامل النور.. ولكن الفوسفور كان سريع الالتهاب فأحدث الحرائق وأنذر بالمخاطر فعمل الإنسان على ترويض هذا الطبع الثائر والمزاج النافر فاستبدل بالفوسفور الأصفر الخطر، كبريتور الفسفور وهو جسم مأمون العاقبة مع مزجه بمواد أخرى يؤمن معها الزلل.

وبمناسبة عود الكبريت تخيل المؤلف حوارا بينه وبين شمعه:

تهز رأسها كما يقول كطفلة شقيه.

قلت: أريد أن أقرأ وأكتب.

قالت: وأريد أن ألعب وأطرب.

قلت: إن للعب النهار، والليل لنسكن.

قالت: إنى أنام النهار وأقوم الليل.

قلت: إنك صفراء حزينة.

قالت: لأنى وحيدة.

قلت: وما هذا الدمع ؟ إنك تبكين.

قالت: إنى أحترق.

قلت: إنه إحتراق للحياة.

قالت: إنه احتراق للفناء.

قلت: ولكننا معشر الناس نحترق أيضا، ونحترق لنحيا

قالت: إنكم تحترقون لتتجددوا يجددكم الطعام أما نحن فنحرق مرة واحدة لنفنى من بعدها

قلت: تلك أفكار سوداء لايشفى منها إلا النوم فالى النوم ياعزيزتى.

وأطلقت عليها من أنفاسى ما حبس أنفاسها،،أغمض عينها ثم أخذ يحلل المواد التى تتكون منها الشمعة.

ولفتيل الشمعة قصة قديمه سجلها الشعر العربى وسجلها ايضا الشاعر الألمانى (جيته) وغيره من شعراء الغرب ذلك أنه كان من عادة فتيل الشمعة أن يتفحم أعلاه داخل الشعلة، ويتكور فحمه، حتى يصير الفتيل كالرأس الأسود.. وهو إذا تفحم، فقد القدرة على التشرب وعندئذ تخفت الشعله وتضطرب وتسوء فتبعث الدخان... ولايصلحها من بعد فسادها إلا قص رأس الفتيل هذا الرأس الأسود المتفحم المتكرر، كان يقصه القدماء كل حين وحين فهو رأس لايصلح الحال إلا بقطعه.. وفى هذا المعنى الطريف لعب الشعر وتفنن الشعراء:

قال الطغرائى فى الشمعة:

ومساعدلى بالبكاء، مسامر

بالليل يؤنسنى بطيب لقائه

هامى المدامع، وأوصاب بعينه

حامى الأضالع، أو يموت بدائه

غرثان، يأخذ روحه من جسمه

فحياته مرهونه ببقائه

يُشَفَى على تلف فيضرب عنقه

فيكون أقوى موجب لشفائه

أختتم هذا العرض بموضوع رائع عنوانه (أول الحياة بيضة) يقول: (البيض من أرخص الأشياء فى الحياة.. وهل أرخص من شىء تنتج الأمة الواحدة منه البليون والبليونين؟ وهو فوق ذلك يؤكل. وكل شئ يؤكل تهبط منزلته، ويتضع قدره فى اعتبار الناس.

ولكن البيضه غير ماتبدو. إنها مخلوق يتنفس كتنفسك... أى بداخلها مخلوق يجاهد كجهادك فى سبيل كينونته وتلك القشرة البيضاء التى تعجز عينك عن رؤية ماتفصَّل من بنائها، بها ثقوب يخرج منها ويدخل فيها بالانفاس، الهواء. إن البيضه هذه التى بكفك، ليست الا مهد الحياة الأول. وقشرها هذا القليل الخطر، هذا القشر الذى ندوسه أحيانا عن غفله بالنعال، قد انطوى من البيضه على سر، لو كشفناه، لانكشف به أخفى أسرار هذا الوجود.

أقول وهنا تحضرنى تسبيحه رائعه من تسابيع اخناتون العظيم الذى فطن إلى روعة الخلق فى البيضة فترنم قائلا:

(أنت الذى تنفخ فى الفرخ وهو مضغة فى بيضته فتهبه الحياة، أنت الذى تتم خلقته فينقف البيضه وهو فى باطنها.. فإذا خرج عنها جعل يصىء بقوة تامة وهو يجرى على قدميه ساعة يخرج. أنت خلقت الأرض خلقتها وحدك لاشريك لك كما شئت وعلى ما أردت الأرض بما فيها من بشر وأنعام وسائمة وكل مادب فوق ظهرها على قدميه وطار فى جوها بجناحين، وجميع الأقطار من الشام وكورش وربوع مصر.. سبحانك أحللت كل إنسان فى موضعه وقضيت له حاجته.. كفلت له رزقه وجعلت لكل أجل كتابا.. وقد اختلفت ألسنتهم كما اختلفت صورهم وألوانهم لأنك سبحانك جعلتهم أمما مختلفة).

لقد تدينت مصر قبل آلاف السنين وقالت بالبعث وعودة الروح وعرفت الصفاء والنقاء ووقفت وراء المسيحية وقبست منها المزامير فى اليهودية كما أخذ عنها سفر الأمثال كما يقول جيمس هنرى برستد فى كتابه فجر الضمير وفصله تفصيلا.

مصر بهذا كله ومن أجل هذا كله كانت القاعدة العريضه للأديان السماوية جميعا بما احتضنت وأهدت ووقفت وراءها فى السلم والحرب.

الكلمات مهما بلغ صدقها ووفاؤها لاترقى إلى قولك يارسول الله: (مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله) عليك من مصر سلام ماترددت فوق سامقات المآذن كلمه: الله أكبر.